

رحلة استطلاعية لقلاع الأمويين في الأردن

< بقلم حبيب سلوم

”سيكون هذا واحدا من أهم المحطات في حياتي“. قالتها منى ابنتي وهي تلتهب حماسا. ونحن ننطلق من عمّان، عاصمة الأردن السريعة التوسع، في طريقنا إلى الزرقاء في الصحراء الشرقية، لرؤية مساكن الخلفاء الأمويين (الذين حكموا في القرنين السابع والثامن الميلاديين). ”أنا مبتهجة جدا! ولقد انتظرت حياتي كلها أن أرى هذه القصور الصحراوية“. منى متخصصة في الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية في جامعه تورنتو.

وأعمال الطابوق والحجر والجص المحفور والتماثيل الداخلة في البناء، ويقال إنها لا تزال. على حد تعبير البروفسور أوليفر غرابار الأستاذ بجامعة هارفارد، من أبرز صروح الفن الإسلامي المبكر وأكثرها أصالة". وحافة الطريق السريع المزدهم بالشاحنات وسيارات الأجرة بين بغداد وعمّان، ليست كلها صحراوية قاحلة. إن يد رجل القرن الحادي والعشرين تركت بصماتها. لقد مررنا بمساحات فارغة كبيرة ومزارع الدجاج ومقالع الحجر وعدد من القواعد العسكرية. وكما هو الحال في العصر الأموي فإن الصحراء يعاد تشكيلها من خلال الفعل الإنساني الخلاق. وصلنا في حوالي ساعة ونصف واحة الزرقاء والتي هي على نحو 100 كم (60 ميلا) شرق عمّان. وقد صدمت، حيث إنها كانت في يوم ما مليئة بأحواض الماء الهادئ ومحاطة بأشجار النخيل، ووصفها لورانس في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" بأنها "عدن المضيئة وذات الملمس الحريري". لقد سلبت آبار الحرفيين القريبة الماء من الواحة، وتضم المنطقة اليوم "محمية الزرقاء" و"محمية الشومري للحيوانات البرية"، وكلاهما يحاولان حماية الحياة البرية والنباتات الطبيعية. ◀



Qasr'Amra
قصر عمرة

**”بني قصر عمرة كمقر للمتعة
والصيد إما عام 705-715م من
قبل الخليفة وليد الأول أو عمه
الوليد الثاني في 743-744م، وقد
أصبح الآن واحدا من مواقع
التراث العالمي.“**

الإسلامي، فيقال إنها تعكس حنين الخلفاء الأمويين إلى رمال الصحراء الهادئة والهروب من الحياة المدنية في دمشق. وهذه الأبنية الصحراوية، في الواقع، هي جزء من مجتمعات صحراوية كبيرة كانت تعمل في الزراعة والتجارة. وتأتي أهميتها اليوم من اعتبارها أمثلة كلاسيكية للتصاميم الإسلامية.

إن صديقنا أحمد الذي أقمنا عنده في عمان يعيش يوما ما في كندا ثم عمل لمدة 20 عاما في الكويت، وهو الآن متقاعد في عمّان. واليوم اصطحبناه، مع ابنه شهاب، في طريقنا إلى استكشاف القلاع الصحراوية في الأردن. ولم يستطع أحمد أن يفهم لماذا ابنتي متحمسة جدا. ”لقد سافر مرات عديدة في هذا الطريق، ولكني لم أكن قد فكرت في الأمويين وقلاعهم“. قال أحمد، وبدت عليه الحيرة في فهم لماذا يأتي شخص ما من أمريكا الشمالية ليرى هذه الآثار القديمة. لكنه لا يمكن أن يلام على أن الآثار العربية ليست مما يهمله أمرها فهو يعيش في العالم العربي المضطرب اليوم. وافق أحمد على أن يقودنا إلى استكشاف بعض الحمامات، والخانات، والقلاع والحصون والقصور المنتوزعة على الأراضي شبه القاحلة المنبسطة الكثيرة الحصى شرق العاصمة الأردنية، وكلها على مسافة سفرة يوم واحد من عمان. ورغم أنها معروفة جميعا بـ”القلاع الأموية الصحراوية“ فإنها ليست كلها من الفترة الأموية، ويعود تاريخ بعضها إلى عهود العرب الأنباط والرومان والبيزنطيين. وأما تلك التي بناها العرب في أوائل التاريخ



Qasr Al-Azraq
القصر الأزرق

”حرانة هو قلعة صحراوية، وهو رائع أكثر من بقية القلاع الصحراوية، واستعمل كحصن دفاعي وقصر للمتعة.“

واستعمل كحصن دفاعي وقصر للمتعة. ومن السهل لمن يقف في الباحة أن يتخيل روعة القمص وهم يروون حكاياتهم وأصوات وأنغام المغنين والموسيقيين. وكذلك تحت العرائش وفي الغرف أعلاها، يستريح الخليفة أو يستمتع بملذاته.

وسط هذا الحنين إلى الماضي، أنهينا جولتنا في القصور الأموية. لو كان لدينا الوقت، بالطبع، لقمنا باستكشاف عدد آخر منها، فهناك قصر عين السيل في منطقة كانت زراعية، والقسطل، وقصر المشتى، وهو مربع الشكل، وقصر الموفر الذي اختص به الخليفة الأموي يزيد الثاني، وقصر الطبعة، وقصر المشاش، وهي كلها حصون/قلاع أموية ماثلة متناثرة في الصحراء الأردنية. ■

أصبح الآن واحدا من مواقع التراث العالمي. وتكمن شهرته في تشكيلاته الجصية والفسيفسائية الملونة، التي عدا عليها الزمن. والتي ربما تكون من أوائل الأشكال التصويرية في الفن الإسلامي، وهي تغطي تقريبا كل شبر من المساحة المتوفرة على القباب والمحاريب والسراديب والجدران. والرسوم الحية تتكون من مشاهد مختلفة بعضها أكبر من الأحجام الحقيقية، لراقصات واسعات العيون، بعضهن عاريات، وحتى مشهد الخليفة في كامل ملابسه الفخمة وهو يراقب سيدة تغتسل في الحمام، وبعضها الآخر يصور مشاهد الصيد والحيوانات الصحراوية والحرفيين وهم يؤدون أعمالهم، وخارطة للمجرات السماوية في واحدة من الغرف ذات القب الزرقاء، ورسوم لستة من الحكام الأجانب من أعداء الإمبراطورية الإسلامية في ذلك الوقت.

غطت الأوساخ هذه التماثيل الجصية لقرون، ولكن قبل عقود قليلة نجح الرعمون الأسبان في إعادة الحياة إلى هذا السجل الثمين وللخليفة الأموية في القرن الثامن الميلادي. وقال مارتن الماغرو وزملاؤه الأسبان الذين عملوا على النمذج الجصية لمدة ثلاث سنوات في قصر عمرة: ”إنه نصب مهم لفهم بدايات الفن العربي الذي لا يزال في مرحلة انتقالية بين شخصية الثقافة البيزنطية واكتشاف الهاماته الخاصة“.

وبعد فحص البئر المحافظ عليها جيدا وهي بعمق 40م (131 قدم) وجزء من شبكة المياه التي مكنت من توفير متعة الحمامات البخارية في القصر، عدنا إلى الطريق فساغرنا باتجاه الغرب عابرين الأرض التي استمتع بها الأمويون.

وعلى مسافة نحو 15 كم (9 أميال) غرب قصر عمرة وقف شهاب عند قصر حرانة، وهو حصن مهيب، ارتفاعه طابقان وله أربعة أبراج. وقيل إنه هو السبب في خطأ تسمية ”القلاع الصحراوية“، ولكن في الحقيقة أن حرانة هو قلعة صحراوية، وهو رائع أكثر من بقية القلاع الصحراوية.

وأوقف شهاب السيارة بجانب اثنين من المارة وسألتهما: ”هل لكما أن تدلانا على الطريق إلى القلاع الأموية؟“ فلم يعرفا الطريق ومضيا في سبيلهما. ويبدو أن الأمويين وقلاعهم لا يعنون لهما شيئا. ومر رجل بالقرب منا وسمع الحادثة فتدخل ليقول: ”أعتقد أنكم تريدون طريق القصر الأزرق وهو على مسافة بضع كيلومترات على هذا الطريق.“ وأشار إلى الاتجاه ثم أكمل مسيره. وتوقفنا بعد بضع دقائق أمام قلعة متشعبة بلا تخطيط ومبنية من الحجر الأسود وموحشة، وقد بنيت في الأصل لأهمية موقعها الاستراتيجي ولتحمي المصدر الرئيسي للمياه في البلدة. ورافقنا المسؤول عن القلعة وهو رجل عجوز، يبدو وكأنه قديم قدم القلعة، في جولة فيها، وكان طوال الوقت يتحدث عن لورانس العرب. ويبدو أنه قد رأى لورانس وكيف أنه صار عاملا في شهرة هذه القلعة. ويبدو أنه تصور أننا من محبي لورانس الذين دفعهم الحنين إلى هنا للسير في خطى بطلمهم.

وهذه القلعة الرومانية-البيزنطية-الصليبية قد أعيد بناؤها في عام 1237م بأمر الحاكم الأيوبي في المنطقة: عز الدين أيبك. وفي زمن آخر أصبحت مقرا لقوات الأمير فيصل أثناء ”الثورة العربية“. وصارت قاعدة انطلق منها فيصل ولورانس للهجوم الأخير على دمشق التي كانت بيد العثمانيين.

وأعطانا المسؤول توجيهات حول الوصول إلى قصر عمرة، وهو بيتسم بعد أن وضعت بضع دولارات في يده. وهذا القصر كان محل المتعة والرياضة للأمويين. وعدنا إلى السياقة على فرع جنوبي من طريق عمان-بغداد لنحو 32كم (20 ميلا) حيث وصلنا إلى أجمل القلاع الصحراوية الأموية في الأردن. وتبدو القلعة من الطريق بناءً جذابا محافظ عليه جيدا.

بني قصر عمرة كمقر للمتعة والصيد إما عام 705-715م من قبل الخليفة وليد الأول أو عمه الوليد الثاني في 743-744م، وقد